محاضرات

أدب المغرب والأندلس
(النثر والموشحات)

الفرقة الثالثة
قسم اللغة العربية وآدابها

أ.م.د.مروة شحاته
أستاذ الأدب الأندلسي المساعد

قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب
جامعة دمنهور

المحاضرة : الأولى
المادة : أدب المغرب والأندلس (النثر والموشحات)
الفرقة : الثالثة
الموضوع : الرسائل الإخوانية في الأندلس

الرسائل الإخوانية هي تلك الرسائل التي تَدُورُ بَينَ الإخوانِ والأصدقاء والخُلَصاء ، ومنها أيضًا الرسائل التي يُرْسِلُهَا الكاتب إلى مَن يُرِيدُ أَنْ يَخْطُبَ مَوَدَّته ، أو يَلْتَمِسَ منه أمرًا من الأمور . وهذا النوع من الرسائل ميدانٌ فسيح للإبداع يَتَبَارَى فيه الكُتَّاب والأدباء ، ويُتيح لأقلامهم وقرائحهم أَنْ تَنْطَلِقَ على سَجِيَّتها ، وأن يعبِّر أصحابها عن عواطفهم الشخصيَّة في لُغَة مَصْقُولة مُنْتَقَاة ، وأساليب قَوِيَّة مُوَشَّاة .

ولهذا النوع من الرسائل أغراضٌ شَتَّى ، أوصلها القلقشندي صاحب كتاب (صُبْح الأعشى) إلى سبعة عشر غرضًا ، هي : التهاني ، والتعازي ، والتهادي ، وطلب الشفاعة ، والتشوُّق ، والاستزارة ، ورَجَاء المَوَدَّة ، وخِطبة النساء ، والاستعطاف ، والاعتذار ، والشكوى ، واستماحة الحوائج ، والشُّكر ، والعِتَاب ، والسؤال عن حال المريض ، والإخبار ، والمُدَاعَبَة .

وفي القرن الخامس الهجري أخذت هذه الرسائل تقترب من الشعر ، في كيفية تعبيرها عن العواطف ، وتَنَاوُلُهَا جانبًا كبيرًا من العلاقات الاجتماعيَّة بين الأفراد .

التهاني :

ويُرْسِلُ الكَاتِبُ الأَنْدَلُسِيُّ رسالة إخوانيَّة لصديقه ؛ بُغْيَةَ التهنئة بمناسبات متنوعة ؛ كالزواج ، أو التهنئة بقُدُوم مولود ، أو التهنئة بقُدُوم العيد ، أو التهنئة بِوِلاية ، أو التهنئة بالعَودة من الحج ، أو التهنئة بالعودة من السفر ، أو التهنئة لِمَن اشْتَرَى شيئًا جديدًا ، أو التهنئة بتمام الشفاء من المرض ، أو التهنئة بالنجاح والتوفيق .

وقد بَعَثَ **أَبُو مُحَمَّد غَانِم** (ت٤٧٠هـ) رسالة تهنئة بميلاد مولود جديد إلى صديق له بغَرْنَاطَة ، جاء فيها : « ومِمَّا أغفلتُهُ بقِلَّة اليَقَظَة ، وسألتُ اللهَ ألا تكتُبَهُ عَلَيَّ الحَفَظَةُ ، تهنئتُك بالفارس المولود ، والفرع المودود ، والنَّجْمِ السعيد ، الذي تَطَلَّعَ في أُفقِ سَمَائِك ، وتلفَّعَ بلفاع ضيائك ، مُلِّيته ولدًا برًّا ، ووفيًّا حُرًّا » .

وكانت بين **ابْن خَفَاجَة الأَنْدَلُسِيّ** (ت٥٣٣هـ) وبعض إخوانه مقاطعة ؛ فَاتَّفَقَ أَنْ وَلِيَ ذلك الصديق حِصْنًا ؛ فخاطبه بِرُقْعَةٍ منها : « كِتَابِي هَذَا حَرْفُ صِلَةٍ فَلا تَحْذِفْهُ ، وَلا تَدُلَّ فِي اسْمِ الجوابِ عَلَى سَرْوِكَ فَاصْرِفْهُ ؛ فَبِهِ الأُنْسُ وَالأُنْسُ ثُلاثِيّ فَلا تُرَخِّمْهُ ، وفِعْلٌ مَاضٍ فَلا تَجْزِمْهُ ؛ حَتَّى تَعُودَ الحَالُ الأُولَى صِفَةً ، وَتَصِيرَ هَذِهِ النَّكِرَةُ مَعْرِفَةً ؛ فَأَنْتَ – أَعَزَّكَ اللهُ – مَصْدَرُ فِعْلِ السَّرْوِ وَالنَّبْلِ ، وَمِنْكَ اشْتِقَاقُ اسْم السُّؤْدَدِ وَالفَضْلِ ، وَإِنَّكَ ، وَإِنْ تَأَخَّرَ العَصْرُ بِكَ ، كَالفَاعِلِ وَقَعَ

مُؤَخَّرًا ، وَعَدُوَّكَ ، وَانْ تَكَبَّرَ ، كَالكُمَيتِ لَمْ يَقَعْ إلاَّ مُصَغَّرًا ، وَلِلأَيَّامِ عِلَلٌ تَبْسُطُ وَتَقْبِضُ ، وَعَوَامِلُ تَرْفَعُ وَتَخْفِضُ ، وَلا زِلْتَ مُرْتَبِطًا بِالفَضْلِ شَرْطُكَ وَجَزَاؤُكَ ، جَارِيًا عَلَى الرَّفْعِ سَرُوكَ الكَرِيمُ وَسَنَاؤُكَ ؛ حَتَّى يُخْفِضَ الفِعْلُ ، وتُبْنَى عَلَى الكَسْرِ قَبْلُ ، إِنْ شَاءَ الله » .

وتبدأ رسائل التهاني غالبًا بكثير مِنَ التَّحْمِيدَات ، والأَدْعِيَة ، ثُمَّ تَذْكُر وَقْع خَبَر النِّعْمَة مَحَلّ التَّهْنِئَة عَلَى نَفْسِ الكَاتِبِ ، مَعَ سَرْد النُّعُوت المُتَعَدِّدَة لِبَاعِثِهَا ، ثُمَّ يُعَرِّجُ عَلَى التَّهْنِئَة بِهَا وتَمَنِّي دَوَامها أو تكرارها أو إصَابة غَيرها ، وتُخْتَتَم الرِّسَالة بِالدُّعَاء وَالسَّلام .

التعازي :

يَشْمَلُ مِثْل هَذَا النَّوع مِنَ التَّعَازِي ؛ التعزية بالبنت ، والأب ، والأم ، والأخ ، والزوجة ، والمكاتبة بالتعزية واسعة المجال ؛ لِمَا تَتَضَمَّنَهُ مِنَ الإِرْشَادِ إلى الصَّبْر ، والتَّسْلِيم إِلَى الله جَلّتْ قُدْرَتُهُ ، وتسلية المُعَزَّى عَمَّا فَقَدَهُ ، والتسليم بحُسْن العِوَض فى الجَزَاء عنه .

كَتَبَ **أَحْمَد بْن قَاسِم** يُعَزِّي بعضَ الأعيان : « ولَمَّا كانت التَّعَازي على الأَعْصُرِ الخالية مِنَ العَوَائِدِ الجَارِيَة ، كتبتُ رُقْعَتِى هذه ؛ فَإِنْ لم تكن تَبْصِيرًا ، كانت مطالعةً وتَذْكِيرًا » .

وقد بعث **أَبُو جَعْفَر بْن اللَّمَائِي** (ت٤٦٥هـ) رسالة تَعْزِيَة إلى أبي جعفر أحمد بن عَبَّاس (ت٤٢٩هـ) في أبيه ، يقول : « إن لم أُجِدْ التَّأْبِين ؛ فأُجد البكاءَ والحنين ، وإن لم أُحْسِنِ التَّمَلُّق والإطراء ؛ فَأُحْسِن الإخلاص والدعاء . واتَّصَلَ بي موت الوزير أبيك – لَقَّاهُ اللهُ غُفْرَانه – وكونُك بفضل الله مكانه ، فَرَوَّعَ جَنَان الصَّبْر ، وأَخْرَس لِسَان الشُّكْر : بَدْرٌ أَفَل ، وهِلالٌ اسْتَقَلَّ ، أُعَزِّيك وأُسَلِّيك ، قَدْرُ مُصَابِكَ قَدْرُ ثوابك ، صَبْرًا جَمِيلاً عليه لِتُؤْجَر ، وفِعْلاً حَمِيدًا بَعْدَهُ لِتُذْكَر ، أصاب الغُرَّةَ فَأصب ، وأتعبَ أهلَ زمانه فأتْعِبْ ، أقول مُحَقِّقًا ، وستشهد لي مُصَدِّقًا : أولاني مِنَ البِرِّ مَا لا أَدْفَعه ، وأَلْبَسَنِي مِنَ الإِكْرَامِ مَا لا أَخْلَعه :

سَتَسْفَحُ عَينِي عَلَيهِ دَمًا إِذَا مَا العُيُونُ سَفَحْنَ الدُّمُوعَا
فَقَدْ كَانَ غُصْنِي بِهِ نَاعِمًا وَرَوضِي أَنِيقًا وَدَهْرِي رَبِيعَا » .

وكَتَبَ **الفَتْحُ بْن خَاقَان** (ت٥٣٥هـ) رسالة تَعْزِيَة عندما مَاتَ بَعْضُ إِخْوَانِهِ غريقًا ، يقول :

« أَتَانِي وَرَحْلِي بِالعِرَاقِ عَشِيَّةً وَرَحْلُ المَطَايَا قَدْ قَطَعْنَ بِنَا نَجْدَا
نَعِيٌّ أَطَارَ القَلْبَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ وَكُنْتُ عَلَى قَصْدٍ فَأَغْلَطَنِي القَصْدَا

نَعَوا وَاللهِ بَاسِقَ الأَخْلاق لا يُخْلِفُ ، وَرَمَوا قَلْبى بسَهْمٍ أَصَابَ صَمِيمَهُ فَمَا أَخْلَفَ ، لَقَدْ سَامَ الرَّدَى مِنْهُ حُسْنًا وَجَمَالاً وَوَسَامَةً ، وَطَوَى بِطَيِّهِ نَجْدَهُ وَتِهَامَهُ » .

وكتب **ابنُ أَبِي الخِصَال الغَافِقِيّ** (ت٥٤٠هـ) رسالة تعزية في سيدة فاضلة ، يقول :

« إِنِّي أُعَزِّيكَ لا أَنِّي عَلَى ثِقَةٍ مِنَ البَقَاءِ ، وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ
فَمَا المُعَزَّى بِبَاقٍ بَعْدَ صَاحِبِهِ وَلا المُعَزِّي وَإِنْ عَاشَا إِلَى حِينِ

كَتَبْتَهُ وَقَدْ دَهِمَ مِنَ المُصَابِ بِالأُخْتِ البَرَّة – كَرَّمَ اللهُ مَثْوَاهَا وَمُنْقَلَبَهَا ، وَرَفَعَ فِي جَنَّاتِهِ دَرَجَاتِها وَرُتَبِها – مَا لَفَحَ الأَكْبَادَ حُرُّهُ ، وَصَدَعَ الفُؤَادَ ذِكْره » .

التهادي :

تُعَدُّ رَسَائِل التَّهَادِي انْعِكَاسٌ وَاضِحٌ لِلتَّطَوُّر الحَضَارِيّ الذِي تَمَيَّزَ به المجتمع الأندلسيّ ، ومِنْ نَاحِية أُخْرَى تُؤَكِّد رُسُوخ أَوَاصِر المَحَبَّة وَالمَوَدَّة بَينَ الكَاتِب وَأَصْدِقَائِه ، وتشير إلى قُوَّة المشاركة الوِجْدَانِيَّة بينهما .

وقد تنوعت الهدايا التي تبادلها الشعراء مع أصحابهم ، ومنها : تُفَّاح ، وورد ، وغزال أهيف وشِطْرَنج صغير ، وماء ورد ، ومُدْيَة ، وغيرها .

وكَتَبَ **أَبُو مُحَمَّد بْن عَبْد البَرِّ** رسالة يَشْكُرُ فِيهَا صديقًا أَرْسَلَ إليه رِسَالة ومعها **هَدِيَّة غزال أهيف وشِطْرَنج صغير** ، يقول : « وَرَدَ كِتَابُكَ ففضضْتُ خَتْمَهُ عَنْ رِيَاضٍ تَفَتَّحَتْ عن أزاهِر كَلِمَك ، ونَشَرْتُ طَيَّه عن جواهِر حكمك ، ولَحَظْتُه بِعَين التدبُّر لمعانيه ، وجميع ما ضَمَّنْتَهُ فِيهِ ؛ فَوَجَدْتُهُ قد أَخَذَ بطرفي الآداب ، واكتست عليه حُلَّة الإيجاز والإسهاب » .

طلب الشفاعة :

يصدر هذا النوع من الرسائل عَنْ ذَوِي الرُّتَب ، والمَنَازِل والأَقْدَار ، الذين يُتَوَسَّل بِجَاهِهِمْ إلى نَيْلِ المَطْلُوب ودَرَك الرغائب .

ويحتاجُ الكَاتِبُ فِي هَذَا النَّوع مِنَ الرَّسَائِل إلى التَّطَلُّفِ ، وألا يُثْقِلُ على المشفوعِ إليه بِمَا كَلَّفَهُ إِيَّاهُ ، ويُؤَدِّي إِلَى بُلُوغ ذَلِكَ الاخْتِصَار ، وأَنْ يَسْلُكَ به مسلك الرِّقَاع القِصَار المُجْمَلَة ، لا الكُتُب الطِّوَال المُفَصَّلَة ، وأَنْ يَرْجِعَ فِيمَا يُودِعه إِلَى قَدْر الشَّافِع وَالمَشْفُوع فِيهِ .

كتب **أبو عبد الله محمد بن شرف القيروانيّ** (ت٤٦٠هـ) رسالة يَشْفَعُ فِيهَا لأحد الشيوخ عند المُظَفَّر بن الأفطس ؛ فقد أبعده هذا الأخير عن أهله وبيته ووطنه بسبب الوُشَاة ، الذين ألصقوا به تُهَمًا ، دَفَعَتْ بِالمَلِك المُظَفَّر إلى طَرْدِهِ مِنَ البلاد ، يقول : « لى رَغْبَةٌ إلى مفاخِره ، وتَطارُحٌ بينَ يَدَي مآثِره ، وادلالٌ على سَمَاحَةِ سَجاياه ، وَتَحامُلٌ على احتمالِ عُلياه . وذلك أَنَّ شيخًا يَفناً قَصَدَ فِنَائى ؛ فَبَكَى حَتَّى بَلَّ بفضلِ دُموعِهِ ردَائِى ، ومَنَعَهُ الشَّوقُ بشَجَاه ، مِنَ الكَلامِ عَلَى مَا ارْتَجَاهُ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّه كَاسِبُ نُسَيَّات ، وأبو بنينَ وبُنَيَّات ؛ فنسَبْتُهُ ؛ فقال : أنا أبو جَعْدَةَ نَهْشَل ، وذَكَرَ مولانا المظفَّر فوصف خيرًا كثيرًا هو أكثر منه ، ودَعَا بخير أجابهُ اللهُ عنه ، ووَصَفَ أَنَّ بُغَاةً بَغَوهُ ، وَحَسَدةً آذَوه ، وتنصَّلَ من ذُنُوبٍ قَرَفُوه بِهَا ، ومولاي أعلم بصدقها مِنْ كَذِبِهَا . ولم يُظْهِرْ حِرْصًا إلاَّ فى المَيتَةِ الأهليَّة والتُّرْبَة الوطنيَّة » .

فأجابه **المُظَفَّر** برقعةٍ من إنشاءِ الوزيرِ **أبي مروانَ بن قُزْمَان** ، وقَبِلَ شفاعته ، وأعاده إلى وطنه .

وكَتَبَ **ابنُ زَيدُون** رسَالَةً مِنْ قُرْطُبة إلى صديقه أبي عَامِر بن مَسْلَمَة بإِشْبِيلِيَة ، يُوَسِّطُهُ فى شأنه لدى المُعْتَضِد بن عباد ؛ لِيَسْمَحَ له بالذهاب إلى إشبيلية ، ويَضُمَّه إلى بلاط شعرائه ، وفيها أشار إلى ما فى العُطْلَة من إظلام الخاطر وصدأ النفس .

وقد شَفَعَ ذُو الوزَارَتَين **ابن مَحْقُور** ، صاحبُ شَاطِبَة ، بِخِطَابٍ مَشْهُور معروف ، لابن عَمَّار (ت٤٧٧هـ) ، ورَفَضَ المُعْتَمِد شَفَاعته ، وشَدَّدَ صِفَادَهُ ، وكان جَوَابُ الشفاعة من إنشاء أبي الوليد بن طَرِيف كاتب المعتمد ، قال فيه : « وقفتُ عَلَى الإشارةِ الموضوعة من قِبَلِكَ عَلَى أخلصِ وجوه السَّلامة ، المُسْتَنَامُ فِيهَا إلى شَرَفِ مَحْتِدِكَ وصَفَاءِ مُعْتَقَدِكَ أكرمَ استنامةٍ ، فِي

الشفاعة فِي مَنْ أَسَاءَ لِنَفْسِهِ حظَّ الاختيار ، وسبَّبَ لها سببَ النكبةِ والعِثار ، بِغَمْطِهِ لعظيم النِّعْمَة ، وَقَطْعِهِ لعلائقِ العِصْمَة ، وتخبُّطِهِ في سَنَنِ غَيِّه واستهدافه ، وتجاوزِهِ في ارتكابِ الجرائم وإسرافِهِ ؛ حَتَّى لم يَدَعْ للصُّلْح مَوضعًا ، وخرقَ سِتْرَ الإبقاءِ بينه وبين مَولَى النِّعْمَة عنده فلم يتركْ فيه مَرْقَعًا ، وقد كَانَ قَبْلَ اسْتِشْرَاءِ دَائِهِ ، وكَشْفِهِ لصَفْحَةِ المُعَانَدَةِ وَابْدَائِهِ ، عُذْرُهُ فِي جَمِيع جناياتهِ مقبولٌ ، وجانبُ الصفح له مُعَرَّضٌ مبذولٌ ، لكنْ غيَّرتْهُ الغَوَاية ، عن طريق الهِدَاية ؛ فاستمرَّ عَلَى ضلالِهِ ، وزاغَ عن سَنَنِ اعتداله ، وأظهر المُنَاقَضَةَ ، وتَعَرَّضَ – بِزَعْمِهِ – إلى المُسَاوَرَةِ والمُعَارَضَة ؛ فَلَمْ يَزَلْ يُريغُ الغَوَائِلَ ، ويَنْصِبُ الحَبَائلَ ، ويَرْكَبُ فِي العِنَادِ أَصْعَبَ المَرَاكِب ، وَيَذْهَبُ مِنْهُ فِي أَوعَرِ المَذَاهِبِ ؛ حَتَّى عَلِقَتْهُ تِلْكَ الأَشْرَاكُ التِي نَصَبَهَا ، وَتَشَبَّثَتْ بِهِ مَسَاوِئ المُقَدِّمَات التِي جَرَّها وسبَّبها ؛ فَذَاقَ وَبَالَ فِعْلِهِ ﴿ وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ (فاطر : ٤٣) » .

توصية :

كَتَبَ الوَزِيرُ الكَاتِبُ **أبو الفضل بن حَسْدَاي الإسْلامِيّ** رسالة توصية إلى ابن عَمَّار عِنَايَةً بأمر ابن الحَدَّاد ، جَاءَ فِيهَا : « المحاسنُ التي تُؤْثَرُ عنك بالسَّرْوِ والسَّنَاء ، والمَحَامِدُ التي تَتَلاقَى عَلَيكَ بِهَا أَلْسِنَةُ الثَّنَاء ، تُميلُ إليكَ أحناءَ القُلُوب ، وتقفُ عنك نَخَائِلَ الصدور ، وقد أصبحتَ بفضلِ الله حِلْيَةَ الزَّمَان ، ومَفْخَرَ الأَوَان ، وَمَسْمَى عُيُونِ الأَفَاضِلِ والأَعْيَان ، بما نَزَعْتَ به من كَرَم الخلائق ، وسُمُوّ الهِمَم السَّوابق ، وما زِلْتَ – أَدَامَ اللهُ عِزَّكَ – تَجْلُو عَلَى المُتَوَسِّلِينَ إليك صَفَحَاتِ البِشْر ، وتنزلُهُمْ في ذَراك عَرَصَاتِ الإجمالِ والبِرِّ ؛ فَتَجْنِي ثَمَرَاتِ المَجْدِ ، وتَتَنَشِقُ نَفَحَاتِ الشُّكْر وَالحَمْد » .

وكَتَبَ **سُلَيمَان بْن أَحْمَد القُضَاعِيّ** رُقْعَة خَاطَبَ بها الوزيرَ ابنَ مُحَامِس عنايةً بِالكَاتِب ابْن أَرْقَم .

التشوق :

كَتَبَ **لِسَانُ الدِّينِ بْن الخَطِيب** رِسَالَةً إلى صديقه أبي زيد بن خَلْدُون (ت٨٠٨هـ) في التشوُّق إليه ، يقول في مفتتحها :

« بِنَفْسِي وَمَا نَفْسِي عَلَيَّ بِهَيِّنَةٍ فَيُنْزِلَنِي عَنْهَا المَكَاسُ بِأَثْمَانِ
حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي وَصَمَّمَ لا يَنِي وَرَاشَ سِهَامَ البَينِ عَمْدًا فَأَصْمَانِي
وَقَدْ كَانَ هَمُّ الشَّيبِ، لا كَانَ، كَافِيًا فَقَدْ آذَنِي لَمَّا تَرَحَّلَ هَمَّانِ » .

وأسلوب لسان الدين بن الخطيب يَتَّسِمُ بتنُّوع الجُمَل بَينَ الخَبَرِيَّة والإنْشَائِيَّة ، والتزام السجع ، واستخدام التشبيه والجناس ، والإكثار مِنْ صِيَغ الدُّعَاء ، وطُول الرسائل إلى حد الإملال ، والإكثار من الاستعارات والكنايات ، والجَمْع بين شعره ونثره في رسالة واحدة ، مع الاستشهاد فيها ببعض أشعار الآخرين .

الاستعطاف :

يَحْتَاجُ هَذَا النوع من الرسائل إلى « حُسْن تَأَتٍّ : لِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيه مِنْ إيجاب حُقُوق الخِدْمَة ، وَمَا أَسْلَفُوه مِنْ مَرْعِيٍّ الخِدَم ، وَما يَتْبع هَذَا مِنَ التَّنَصُّل وَالاعْتِذَار الذِي يَسُلُّ السَّخَائِمَ مِنَ القُلُوبِ ، وَيَسْتَنْزِلُ الأَوغَار مِنَ الصُّدُور ، وَيُطْلِع الأُنْس وَقَدْ غَرَب ... ويَنْبَغِي لِلكاتبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِيهَا فِكْرَه ، وَيُوَفِّيَهَا حَقَّها مِنْ جَودة التَرْتِيب ، وَاسْتِيفَاءِ المَعَانِي ، وَأَنْ يَذْهَبَ إِلَى اسْتِعْمَالِ الأَلْفَاظِ الجَامِعَةِ لِمَعَانِي العُذْر ، المُلَوِّحَة بِالبَرَاءَة مِمَّا قُرِفَ بِهِ » .

ومن رسائل الاستعطاف الرسالة الجِدِّيَّة التي كتبها **ابن زيدون** من سجنه إلى الوزير أبي الحَزْم بن جَهْوَر (ت٤٣٥هـ) ، وقد تَعَدَّدَتْ أَغْرَاضُ الرِّسَالة ، ولكنه مَزَجَ الاستعطاف بِكَثِيرٍ مِنَ الزَّهْو وَالامْتِنَان وكُرْه العقاب على ذنبٍ غير واقعيّ .

يقول: « يَا مولايَ وسيدي الذي وِدَادِي لَهُ ، واعْتِمَادِي عَلَيهِ ، واعتدادي به ، وامتدادي منه ، ومَنْ أَبْقَاهُ اللهُ تَعَالى مَاضيَ حَدِّ العَزْمِ ، وَارِيَ زَنْدِ الأَمَلِ ، ثابتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ ، إنْ سَلَبْتَنِي – أعزَّك اللهُ – لباسَ إنعامِكَ ، وعطَّلْتَنِي من حَلْي إيناسِكَ ، وأظْمَأْتَنِي إِلَى بَرُودِ إسعَافِكَ ، ونَفَضْتَ بِي كفَّ حِيَاطَتِكَ ، وَغَضَضْتَ عَنِّي طَرْفَ حِمَايَتِكَ – بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ، وسَمِعَ الأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيكَ ، وَأَحَسَّ الجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيك – فَلا غَرْو: قد يَغَصُّ بِالمَاءِ شَارِبُهُ ، ويَقْتُلُ الدواءُ المُسْتَشْفِيَ به ، ويُؤتَى الحَذِرُ من مَأْمَنِهِ ، وتكونُ مَنِيَّةُ المُتَمَنِّي في أُمْنِيَّتِهِ ، والحَينُ قد يَسْبِقُ جُهْدَ الحَرِيصِ :

كُلُّ المَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الفَتَى
وَتَهُونُ ، غَيرَ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ

وإني لأتجلَّدُ ، وأُرِيَ الشامتين أني لريب الدهر لا أتَضَعْضَعُ ؛ فأقولُ : هل أنا إلا يدٌ أدْمَاهَا سِوَارُهَا ؟ وَجَبِينٌ عَضَّ به إِكْلِيلُهُ ؟ ومَشْرَفِيٌّ ألصقَهُ بالأرض صاقِلُهُ ، وسَمْهَرِيٌّ عَرَضَهُ على النار مُثَقِّفُهُ ؟ وعبدٌ ذَهَبَ به سيِّدُهُ مَذْهَبَ الذي يقول :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا، وَمَنْ يَكُ حَازِمًا
فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ » .

وتُصَوِّرُ الرسالة نفسيَّة ابن زيدون قلقة حائرة ، تتأرجح بين تيارات نفسيَّة متضادة ؛ فَهِيَ مَرَّة ثَائِرَة أَبِيَّة ، حين يُسْبِغُ صِفَاتَ الفَخْرِ والهِمَّة والشجاعة على نفسه ، ومَرَّة خاضعة ذليلة حين يستعطف ويَرْجُو العَفْو والصَّفْح .

ومَزَجَ ابْنُ زَيدُونَ اسْتِعْطَافه بِفَخْرِهِ ، واسترحامه بعتابه ، وتوسُّلِه بمَنِّه ، وهَدَّدَهُ بالهجرة إلى مَنْ يُقَدِّرُهُ قَدْرَهُ ، « ولقد تَجَلَّى إِبَاء الشاعر حَتَّى وَهُو فِي سجنه تحت رحمة خصومه ؛ فما يكاد يَتَضَرَّعُ إِلَى الأَمِيرِ حَتَّى يَتَيَقَّظ فيه الإباء ؛ فَيَمْتَنُّ عليه حينًا ، ويُهَدِّدُهُ باللجوء إلى غيره من الأمراء حينًا آخر » .

ومن الأمثال العربيَّة التي وَرَدَتْ فِي الرِّسَالة الجِدِّيَّة : (أَخْرِجْ الطمع من قلبك تحل القيد من رجلك) ، و(ارض من المركب بالتعليق) ، و(أعزّ مِنَ الدُّباء في الماء) ، و(أغرّ مِنَ الأمانيّ) ، و(أغرّ مِنْ سَرَاب) ، و(أغر مِنْ ظَبْيٍ مقمر) ، و(التقى البِطَان وَالحقَب) .

الهجاء :

يُعَدُّ الهِجَاءُ من الموضوعات القليلة التي تناولتها الرسائل الإخوانيَّة ، ومِمَّا انتهى إلينا من هذا اللون من الرسائل ما كتبه الخليفة **عبد الرحمن الناصر** (ت٣٥٠هـ) إلى القائد أحمد ابن إسحاق بن محمد القُرَشِيّ ، الذي بعث إلى الخليفة رسالة يطلب فيها أن يجعله وليًّا للعهد بدلاً من الحَكَم أو عبد الله ابني عبد الرحمن الناصر ، وقد اغتاظ الناصر منه كُلَّ الغَيظ ، وسَخِطَ عليه ؛ فكتب إليه هذه الرسالة يَحُطُّ فيها من شأنه ، ويُنْقِصُ مِنْ قَدْره ؛ وهو يصفه بأنه قد طُبِعَ على قِلَّة الفَهْم والإدْرَاك : « أَمَّا بَعْد فَإِنَّا كُنَّا نرى الاستحماد إليك استصلاحًا لك ؛ فَأَبَى الطَّبْعُ الغَرِيزِيّ إلاَّ ما اُسْتُحْكِمَ منه فيك ، إلى أن اسْتَحْوَذَ عليه ؛ فالفَقْرُ يُصْلِحك ، والغِنَى يُطْغِيكَ إِذْ لَمْ تَكُنْ عَرَفْتَهُ ولا تَعَوَّدْتَهُ » .

ثُمَّ يَمْضِي عبد الرحمن الناصر في هجائه وقسوته ، مُتَنَاوِلاً بَعْض الصفات المعنويَّة التي تَخِلُّ بكَرَامَة قائده ، وَتُشَكِّل المطاعن والنقائص في شخصيته ؛ فهو يُذَكِّرُهُ بماضي أسرته ونسبه ، ويَطْعَن فِيهِمَا ، ويُذَكِّرُهُ أيضًا بأنه كان صنيعة الأُمَوِيينَ ؛ حَيثُ يَقُولُ : « أوليس كان أبوك من فرسان ابن حَجَّاج أَخَسُّهم حالاً عنده ، وأنت يَومَئِذٍ نَخَّاس الحمير بإشبيلية ؛ فأقبلتم إلينا ؛ فآويناكم ونصرناكم وشَرَّفْنَاكم ومَوَّلْنَاكُم ، واستوزرنا أباك ، وقَلَّدْنَاك أَعِنَّة الخيل أجمع ، وفَوَّضْنَا إليك أمر ثغرنا الأعظم ؛ فتهاونت بالتنفيذ لنا ، وقِلَّة المُبَالاة بنا ، ثُمَّ مع هذا التَّرَشُّح للخلافة ؛ فبأيّ حَسَب أَو أَي نَسَب ... أليست كانت أُمّك حمدونة الساحرة ، وأَبُوك المَجْذُوم ، وجَدُّك بواب حوثرة بن عباس يَفْتِلُ الحِبَالَ فِي أُسْطُوَانة ، ويخيط الحلفا على باب داره ؛ فَلَعَنَكَ اللهُ ، ولَعَنَ مَنْ أَنْشَبَنَا فِي الاستخدام بك ، فيا مأبون ويا مجذوم ويابن الكلب والكلبة أَقْبِلْ صَاغِرًا » .

ومن رسائل الهجاء الساخر رسالة خَاطَب بها **أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بن مَسْعُود** ابنه إذ تَوَجَّهَ إلى الغرب ، وقد بلغه خَلْعُ عِذَارِهِ في البَطَالَةِ والشربِ ؛ فأرسل إليه يَلُومَهُ على سُوءِ فِعْلِهِ ، ويَسْخَرُ مِنْهُ متهكمًا ، قال فيها : « فَازَ يَا بُنَيَّ مَنِ اسْتَشْعَرَ البِرَّ والتقوى ، واستمسك بالعُرْوَةِ الوُثْقَى ، واعتصم بحبلِ القناعة والرضا ، وتحصَّنَ بالعفاف ، وتبلَّغ بالكفاف ؛ فلم يُزَاحم الأقدار ، ولا غَالبَ الليلَ والنَّهَار .

ولَشَدَّ يا بُنَيَّ ما أَوغَلْتَ في البلاد ، واستَوطَأْتَ فِي غُربَتِكَ خُشونَةَ المِهَاد ، وتَوَرَّطْتَ مُوحِشَ المَجَاهِل ، وتورَّدتَ آجِنَ المَنَاهِل :

تَجَاوَزْتَ فِي هَذَا وَذَاكَ مَا بِهِ ... أُمِرْتَ وَلَمْ تَقْنَعْ مِنَ البُعْدِ بِالدُّونِ

وَلَمْ تَتَذَكَّرْ شَوقَ أُمٍّ حَزِينَةٍ ... عَلَيكَ وَشَيخ هَائِمِ القَلْبِ مَحْزُونِ

بِمَاذَا يَفِي هَذَا وَذَاكَ لَو حَوَتْ ... يَمِينُكَ مَا حَازَتْ خَزَائِنُ قَارُون » .

وهناك رسالة إخوانية يَسْخَرُ فيها **أَبُو عَامِر بْن شُهَيد** من أبى القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري الأندلسي المعروف بابن الأفليلي (ت٤٤١هـ) ، وإبداعه الأدبيّ ، يقول : « وليس العَجَبُ فِي هَذِه العِصَابَة إلاَّ مِنْ أَبِي القَاسِم ، فَإِنَّهُ زَادَ عَلَيهِمْ فِي الصِّنَاعَة ، وَبَزَّهُمْ بِوُفُورِ البِضَاعَة ، دَخَلَ الشُّعَرَاءُ فَأَخَذَ لَبَاقَتَهُمْ ، وَصَارَ فِي جُمْلَةِ الكُتَّابِ ؛ فَاسْتَعَارَ صَلَفَهُمْ وَرَشَاقَتَهُمْ ، وَبَاشَرَ أَهْلَ الحِسَابِ فَاسْتَفَادَ طَرِيقَةَ البَرَاهِين ، وَنَاظَرَ أَهْلَ الجَدَلِ ؛ فَتَعَلَّمَ القَوَانِين ، وعَرَفَ

عَنَاصِرَ الكَلام ؛ فَكُلُّ عِلْمٍ يَزْعُمُهُ قَبْضَ يَدِهِ ، وَكُلُّ جِدٍّ وَهَزْلٍ فَإِلَيهِ مَنْسُوبٌ ، وَعَنْهُ مَأْخُوذ ، وَهُوَ مَعَ مَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّه ، وَحُبِّي بِهِ ، أَشَدَّهُمْ صَبَابَةً بِأَلاَّ يَكُونَ بِالأَنْدَلُسِ مُحْسِنٌ سِوَاهُ ، وَلا مُجِيدٌ حَاشَاهُ ، وَكَانَ الرَّأْيُ عِنْدِي لَهُ أَنْ يَسْكُنَ أَرْضَ جليقية أو قُطْرًا بَعُدَ عَنِ الإِسْلامِ ؛ حَتَّى لا يَسْمَعَ فِيهِ لِخَطِيبٍ ذِكْرًا ، وَلا يُحِسَّ لِشَاعِرٍ رِكْزًا ؛ فَيَكُون هُنَاكَ فَرْدًا » .

ومن رسائل الهجاء **الرسالة الهَزْلِيَّة** الشهيرة التي كتبها **ابن زيدون** على لسان ولادة بنت المستكفي (ت٤٨٤هـ) ، يتهكم فيها بالوزير أبِي عَامِر بْن عَبْدُوس (ت٤٧٢هـ) تهكُّمًا مرًّا ؛ لأنه نَافَسَهُ فِي حُبِّ وَلاَّدَة ، وتَجَرَّأَ وأرسل امرأةً تُزَيِّنُهُ وتُبْرِزُ مَحَاسِنَهُ إلى وَلاَّدَة ؛ فاستشاط ابن زيدون غضبًا ، وكتب هذه الرسالة في غَمْرَةِ غَضَبِهِ وغَيظِهِ .

يقول : « أمَّا بعدُ ، أيُّها المصابُ بِعَقْلِهِ ، المُوَرَّطُ بِجَهْلِهِ ، البَيِّنُ سَقَطُهُ ، الفَاحِشُ غَلَطُهُ ، العَاثِرُ في ذيلِ اغْتِرَارِهِ ، الأعمى عن شمسِ نَهَارِهِ ، الساقِطُ سُقُوطَ الذُّبَابِ عَلَى الشَّرَاب ، المتهافِتُ تهافُتَ الفَرَاشِ إلى الشِّهَابِ ؛ فإنَّ العُجْبَ أَكْذَبُ ، ومعرفَةَ المَرْءِ نَفْسَهُ أَصْوَبُ ، وإنَّك رَاسَلْتَنِي مُسْتَهْدِيًا – مِنْ صِلَتِي – ما صَفِرَتْ منه أيدِي أمثالِكَ ، مُتَصَدِّيًا – من خُلَّتِي – لما قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ أَشْكَالِكَ ، مُرْسِلاً خَلِيلَتَكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلاً عَشِيقَتَكَ قَوَّادَةً ، كَاذِبًا نَفْسَكَ أَنَّك سَتَنْزِلُ عنها إليَّ ، وتَخْلُفُ – بَعْدَهَا – عَلَيَّ :

وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيسَ بِالنَّائِلِ » .

وقد بدأها بوصف ابن عبدوس بأوصاف الحَمْقَى والجُهَلاء ، مُنْكِرًا منه إرسال امرأة إلى وَلاَّدة مُثْنِيَةً عليه ، واصفةً له بأوصاف أَعْيَانِ الزَّمَانِ مِنَ العُلَمَاءِ والأُدَبَاءِ ، وقد طَرَدَتْهَا وَلاَّدة .

تهكَّمَ من ابن عبدوس ، وسَخِرَ مِنْهُ لأنه ظَنَّ أَنَّ ولادة تُحِبُّهُ ؛ فهذا دليل بَيِّنٌ على أنه مصابٌ في عقله ، مورطٌ بالجهل ، ظاهرُ السقط ، فاحش الغلط ، عاثرٌ في الغرور ، أعمى عن شمس النهار ؛ حَتَّى لكأنه الذُّبَاب يَتَهَافَتُ عَلَى الشَّرَابِ ، والفَرَاشُ يُلْقِي بِنَفْسِهِ فِي الشِّهَابِ ، وَمَا مَنْشَأُ ذَلِكَ إلا العُجْب الكاذب منه ، وكان الصواب أن يعرف قدر نفسه فلا يستهدي ما صفرت منه أيدي أمثاله ، ولا يتصدى لما قرعت دونه أنوف أشكاله .

ثم أخذ يهجوه بأوصاف في الخَلْق والخُلْق ، يقول : « هَجِينُ القَذَالِ ، أَرْعَنُ السِّبَالِ ، طَوِيلُ العُنُقِ وَالعِلاوَةِ ، مُفْرِطُ الحُمْقِ وَالغَبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْع ، سَيِّئُ الجَابَةِ والسَّمْع ، بَغِيضُ الهَيئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالجَيئَةِ ، ظَاهِرُ الوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ المَعَايِبِ ، مَشْهُورُ المَثَالِبِ ، كَلامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ ، وضِحْكُكَ قَهْقَهَةٌ ، ومَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، ودِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ :

مَسَاوٍ !! لَو قُسِمْنَ عَلَى الغَوَانِي لَمَا أُمْهِرْنَ إلا بِالطَّلاقِ » .

وتنطلق ولادة – فالرسالة على لسانها – تَذْكُرُ مَحَاسِنَهُ التي أخبرتها بها المرأة التي أرسلها لها ؛ حَتَّى خَيَّلت لَهَا أَنَّهُ جَمَعَ كُلَّ الفضائلِ من جَمَالٍ وقُوَّة وسُلْطَان وحُسْن مُنَادَمَة وشَجَاعة ؛ فهو المَثَلُ الأعلى في الأخلاق والثقافة ، ثُمَّ تُشَبِّهه بمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الأَعَاجِم ، أو سَيِّد مِنْ سادة العرب ، أو فَيلَسُوفٍ مِنْ فَلاسِفَة اليُونَان ، وغيرهم ، وكُلّ ذَلِكَ يَجْرِي مجرى التهكُّم .

وتَخْلِطُ ذَلِكَ بِسَرْدِ الأَمْثَالِ وَالأَشْعَارِ التي تُنَاسِب المَقَام ، وما تلبث أن تُفصح عَمَّا في نفسها ؛ فَتَتَوَعَّده وتُنْذِرُهُ ، ثُمَّ تَنْهَالُ عَلَيهِ بِالسِّبَاب وَالشَّتَائِم .

وقد حاول ابنُ زيدون صَرْف ابن عبدوس عن ولادة ، وتقبيحه في عينيها ، ولكنه أخطأ حين صَوَّرَهَا في رسالته بصورة لا تتناسب مع امرأة شريفة حُرَّة ، فقال على لسانها : « وأينَ مَنْ أنْفَرِدُ بِهِ ، مِمَّنْ لا أُغْلَبُ إلا عَلَى الأقَلِّ الأخَسِّ مِنْهُ ؟ وَكَمْ بَينَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بالقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ المَصْرُوفَةِ إلَيَّ ، وَاللَّذَّةِ المَوْقُوفَةِ عَلَيَّ ، وَبَينَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ » .

واستمر على هذا النحو يضرب الأمثال ويهجو ويتهكم إلى آخر الرسالة .

وتتميز الرسالة بالتلوين اللفظيّ ، والترادف المعنويّ ، والإيقاع المُنْسَجِم ، وبقِصَر الجمل ، والتقطيع المُتَوَازِن لَهَا ، والحِرْص على السجع ، الذي التزم به ابن زيدون في أغلب المواضع .

وتَدُلُّ هذه الرسالة على اطلاعٍ واسع ، وعِلْمٍ كَبِير بِالأَمْثال والأَخْبَار ، وعَلَى دِرَايَة وَافِرَة بِالهِجَاء ؛ ذلك لأنَّهُ أَقْذَعَ فِي ذَمِّ ابن عَبْدُوس إقذاعًا لا مَثِيلَ لَهُ ؛ وكأنه جَمَعَ فيها كُلَّ ما يمكن أن يُقَال في الذمِّ والتَّهَكُّم .

ومن الشعراء الذين اقتبس منهم في الرسالة الهزلية : الأعشى (ت٧هـ) من الجاهليين ، ودُرَيد بن الصِّمَّة (ت٨هـ) ، والخنساء (ت٢٤هـ) ، والحطيئة (ت نحو سنة ٥٩هـ) من المُخَضْرَمِين ، ومجنون ليلى (ت نحو سنة ٧٠هـ) ، وعُمَر بن أبي رَبِيعَة (ت٩٣هـ) ، والفرزدق (ت١١٤هـ) من الأُمَوِيِّينَ ، وبَشَّار بن برد (ت١٦٧هـ) ، وأبو نُواس (ت١٩٩هـ) ، وأبو العتاهية (ت٢١١هـ) ، وأبو تمام (ت٢٣١هـ) ، والمتنبي (ت٣٥٤هـ) ، والمَعَرِّيّ (ت٤٤٩هـ) من العَبَّاسِيِينَ .

وقد قرأ ابن زيدون رسالة (التربيع والتدوير) للجَاحِظ ، التي سَخِرَ فيها مِنْ أحمد بن عبد الوهاب الكاتب ببغداد ، واتَّفَقَ أن كان هذا الأديب قصيرًا مملوءًا ، فنعته بأنه مُرَبَّع مُدَوَّر ، وألصق به نعوتًا ساخرة ، وَأورَدَ أسماء كثير مِنَ الرِّجَالِ المشهورين ، وأُعْجِبَ بها ابن زيدون ؛ فَحَاوَلَ أَنْ يَصْنَعَ على مثالها هذه الرسالة الهَزْلِيَّة ، وقد نَهَجَ فيها نَهْجَ الجاحظ .

وكَتَبَ **أبو الحَسَن الحُصْرِيَ الكَفِيف** رسالة هجاء خَاطَبَ بها أبا الحُسَين سُلَيمَان بْن مُحَمَّد بْن الطَّرَاوَة المَالِقِيّ النَّحْوِيّ (ت٥٢٨هـ) ، وجَرَت بينهما هِنَات ، وكانت بينهما مُنَافَرَة ؛ حَيثُ هَجَا كُلٌّ مِنْهُمَا الآخر ، ونَالَ كُلٌّ مِنْهُمَا من صاحبه . قَالَ فِي أَوَّلِهَا :

« يَمُوتُ مَنْ فِي البِلادِ طُرًّا مِنْ طَيِّبٍ كَانَ أَو خَبِيثِ
فَمُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ » .